الجانب الإجتماعي في حياة النبيﷺ قبل البعثة من خلال كتاب عيون الأثر

The Social Aspect of The Prophet's Life Before Prophethood Through the Book "Uyoon-Al-Athar"

Atta Ullah Subhani
PhD scholar, Department of Seerah & Islamic History, IIUI, Islamabad.
Email: attaullahsubhani463@gmail.com
Dr. Yousef Muhammad Tahir
Assistant Professor, Department of Seerah & Islamic History, IIUI, Islamabad.
Email: yousif.tahir@iiu.edu.pk

ABSTRACT
"Uyoon al-Athar" is a distinguished work on the Seerah (biography) of the last Prophet of Allah, Muhammad (peace be upon him), authored by Ibn Sayyid al-Nas. Written in Arabic, the book showcases exceptional literary and grammatical qualities, making it a masterpiece of Seerah literature. This study delves into the life of Ibn Sayyid al-Nas, the historian behind this significant work, focusing on the historical context of the Mamluk period (648 AH/1250 AD - 923 AH/1517 AD), during which the Mamluks ruled Egypt. The Mamluk rulers encouraged scholars of their time to compose historical works, particularly biographies of the Prophet. This article comprehensively explores the methodology and style adopted by Ibn Sayyid al-Nas in writing the Seerah, with special attention to his unique approach to the Maccan period, which set him apart from earlier historians of the Prophet's biography.
Keywords: Uyoon al-Athar, Seerah writing, Maccan period, social aspects

يتناول هذا البحث منهج المؤرخ ابن سيد الناس في كتابة سيرة النبي ﷺ، حيث يُركز على الجانب الاجتماعي في حياته قبل البعثة. يعد ابن سيد الناس من أبرز المؤرخين الذين كتبوا عن السيرة النبوية في العصر المملوكي، وهو العصر الذي حكم فيه المماليك مصر بين (548 هـ/1250م – 923 هـ/1517م). تميز هذا العصر بتشجيع الحكام على تأليف الكتب، خاصة في مجال السيرة النبوية. ويهدف البحث إلى تحليل المنهج المميز الذي اتبعه ابن سيد الناس في كتابة السيرة، والذي اختلف عن منهج المؤرخين السابقين.

يشتمل البحث على نبذة موجزة عن حياة ابن سيد الناس وأهم أعماله في السيرة النبوية ثم دراسة الجانب الاجتماعي من حياة النبي ﷺ قبل البعثة من خلال كتاب "عيون الأثر".

ترجمة الإمام الحافظ ابن سيد الناس (صاحب كتاب "عيون الأثر"):

الإمام الحافظ العلامة المحدث الأديب المؤرخ الفقيه أبو الفتح فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري، يعود نسبه إلى يعمر، وهو بطن من قبيلة كنانة الربعي التي تُنسب إلى ربعي بن نزار. وُلد في الأندلس في مدينة إشبيلية، ثم استقر في مصر، وكان يتبع المذهب الشافعي. اشتهر بلقب "ابن سيد الناس" وأصبح من أبرز العلماء في مجاله. [1]

استقر الجد أبو بكر محمد في مدينة بجاية بالجزائر قادمًا من الأندلس، حيث تولى إمامة صلاة الفريضة والخطابة بالجامع الأعظم هناك. في تلك الفترة، كانت بجاية من أبرز الحواضر العلمية. [2] أما الابن أبو عمرو محمد، فقد هاجر إلى القاهرة، حيث وُلد الحفيد أبو الفتح محمد في شهر ذي القعدة من عام 671هـ.

اهتم الوالد أبو عمرو بتعليم ابنه منذ سن مبكرة، فاصطحبه إلى مجالس العلم، حيث بدأ أبو الفتح بحضور بعض دروس والده. وفي عام (685 هـ) وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره، بدأ بكتابة الأحاديث بنفسه، وقرأ الحديث بلفظه عن شيخه قطب الدين أبي بكر محمد بن أحمد القسطلاني (ت 686 هـ). [3] كما تتلمذ في هذه المرحلة على يد أصحاب أبي حفص بن طبرزد (ت 670 هـ)، [4] وأصحاب الكندي (ت 613 هـ)، [5]، وابن الحرستاني (ت 614 هـ) [6]، وسمع من العلماء الكبار. يُقدّر عدد مشايخه بما يقارب الألف[7]، كما رحل إلى عدة بلاد إسلامية منها الإسكندرية، الحجاز، الشام، العراق، والأندلس، قبل أن يعود إلى القاهرة لملازمة شيخه الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد.

لم يقتصر ابن سيد الناس على علوم الحديث فقط، بل درس الفقه وأصوله على يد ابن دقيق العيد، كما أخذ علوم اللغة العربية عن الشيخ بهاء الدين بن النحاس (ت 698 هـ) [8]، وأتقن الكتابة بالخطين المغربي والمشرقي. [9]

بفضل علمه الواسع، تولى ابن سيد الناس التدريس في القاهرة في المدرسة الظاهرية، ومدرسة أبي حليقة (المهذبية) [10]، وجامع الصالح، ومسجد الرصد، كما خطب بجامع الخندق. وتتلمذ على يديه العديد من طلاب العلم، أبرزهم صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، الذي نقل عنه الكثير.

ترك الإمام ابن سيد الناس عددًا من المؤلفات، منها ما اكتمله ومنها ما لم يكمله. من أبرز مؤلفاته المكتملة:

1 .عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (مطبوع ومحل الدراسة).

2 .نور العيون، وهو مختصر لـ"عيون الأثر"، ويُعرف أيضًا بالسيرة الصغرى.[11]

1. تحصيل الإصابة في تفضيل الصحابة، الذي يتناول تفاضل الصحابة وفضلهم.

4 بشرى اللبيب بذكرى الحبيب، قصائد نبوية وشرحها. [12]

2. منح المدح، الذي جمع فيه مدائح الصحابة والتابعين للنبي ﷺ.

6 المقامات العلية في كرامات الصحابة الجلية.

3. أما مؤلفاته التي لم يُكملها، فكان أبرزها:

النفح الشذي في شرح جامع الترمذي ، [13] والمعروف أيضًا بـ"الفوح الشذي" أو "المقنع الشذي"، [14] حيث لم يُكمل هذا الشرح.

توفي الإمام ابن سيد الناس يوم السبت الحادي عشر من شعبان سنة (734 هـ)، [15]، وشهدت جنازته حضورًا حافلًا من العلماء، الفقهاء، الأمراء، والقضاة. رثاه تلميذه الصفدي بكلمات مؤثرة، رحمهما الله جميعًا.

تعريف المجتمع:

لا يخفى أن لفظ "المجتمع" مشتق من الجذر "جَمَعَ"، حيث يشير الجمع إلى ضم الأشياء المتشابهة، وضده التفريق والإفراد. وقد أحسن صاحب "لسان العرب" في توضيح معنى هذه اللفظة عندما قال: "تجمع القوم اجتمعوا من هنا وهناك" [16] ، وهو تعبير يعكس استحضار صاحبه لفكرة نشأة المجتمعات. عند النظر في دلالة لفظ "المجتمع" كمصطلح، نجد العديد من التعريفات التي تختلف باختلاف التخصصات. فهناك تعريفات من منظور سياسي، وأخرى من منظور اجتماعي أو نفسي، وغير ذلك. لسنا في هذا السياق بصدد استعراض كل هذه التعريفات، لكن يمكننا الاعتماد على تعريفٍ يبدو الأقرب إلى مباحثنا . المجتمع يُعرف بأنه: "مجموعة كبيرة من الأفراد المستقرين، تجمعهم روابط اجتماعية ومصالح مشتركة، تُرافقها أنظمة تضبط السلوك، وسلطة تُشرف عليها ." [17]

واستنادًا إلى هذا المفهوم، يمكن تعريف "المجتمع الإسلامي" على أنه: "مجموعة من المسلمين المستقرين في أرضهم، تجمعهم رابطة الإسلام، وتُدار شؤونهم وفق تشريعات وأحكام إسلامية، ويرعاها ولاة أمر وحكام منهم".

الحياة الاجتماعية للنبي ﷺ قبل البعثة:

كان النبي ﷺ يتمتع بقدرات قيادية واجتماعية فائقة؛ فقد كان ودودًا مع أصحابه، محبًا لأهله، كريمًا بطبعه، مضيافًا، وبشوشًا في تعامله مع من يقابله. كان رحيماً بالضعفاء، يتعامل مع الناس بروح طيبة، ويلتفت إليهم باهتمام كامل. كما كان يجيد فن الحوار، ينصت بإنصات تام لمن يتحدث إليه، ويبدي اهتمامًا حقيقيًا لما يُقال. من يراه يُحبّه، ومن يسمع حديثه يقتنع بكلامه. ولقد وصفه الله تعالى بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [18]، مما يدل على عظمة أخلاقه ﷺ.

بعد نزول الوحي، وعندما عاد النبي ﷺ إلى السيدة خديجة مرتعدًا من هول ما رأى، أخبرها بما حدث وقال لها: «لقد خشيت على نفسي»، فطمأنته بقولها: "والله ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". وفي بعض الروايات، أُضيفت صفات أخرى مثل: "وتصدق الحديث" و"وتؤدي الأمانة." [19]

من الجوانب الاجتماعية البارزة في شخصية النبي ﷺ قبل البعثة كانت مشاركته في بعض الأحداث الهامة التي شهدتها مكة. سأستعرض هذه الجوانب بإيجاز من خلال مصادر السيرة النبوية، ثم سأقدم تحليلًا لهذه الأحداث استنادًا إلى كتاب "عيون الأثر"، مع توضيح منهج المؤلف في تناولها. هذه الأحداث تشمل:

1. حضوره ﷺ يوم الفجار.
2. مشاركته ﷺ في حلف الفضول.
3. حضوره ﷺ في بنيان قريش للكعبة.

حرب الفِجَار:

في سن الخامسة عشرة من عمر النبي ﷺ، وقعت حرب الفجار بين قريش ومن تحالف معها من كنانة، وبين قبيلة قيس عيلان. كان قائد قريش وكنانة في هذه الحرب حرب بن أمية، نظرًا لمكانته الكبيرة بينهم من حيث السن والشرف. في بداية النهار، كانت الغلبة لقيس عيلان على كنانة، ولكن مع مرور الوقت، وفي منتصف النهار، تحوّلت الكفة لصالح كنانة.

سُميت هذه الحرب بـ"الفجار" لانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم، وهو ما جعلها حدثًا بارزًا في تاريخ العرب قبل الإسلام. وقد حضر النبي ﷺ هذه الحرب، حيث كان يساعد عمومته بتجهيز السهام لهم للرمي، وهو ما يُعرف بعملية "ينبل" أي يعدّ لهم النبال. [20]

حلف الفضول:

وعلى أثر حرب الفجار، وقع حلف الفضول في شهر ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم. دعت إلى هذا الحلف مجموعة من قبائل قريش، منها: بنو هاشم، بنو المطلب، أسد بن عبد العزى، زهرة بن كلاب، وتيم بن مرة. اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي نظرًا لسنه وشرفه في قريش، وتعاقدوا وتعاهدوا على نصرة أي مظلوم في مكة، سواء من أهلها أو من غيرهم، وألّا يتركوا ظلمه دون أن يقفوا بجانبه حتى يُردّ إليه حقه.

شهد النبي ﷺ هذا الحلف، وقال عنه بعد أن أكرمه الله بالنبوة: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت».

هذا الحلف تميز بروحه التي تناقض العصبية الجاهلية والحمية القبلية التي كانت تثير النزاعات بين العرب. ويُقال إن سبب هذا الحلف هو أن رجلًا من زُبيد قدم مكة ومعه بضاعة، اشتراها منه العاص بن وائل السهمي، لكنه امتنع عن دفع حقه. حين استنجد الزبيدي بقبائل الأحلاف مثل عبد الدار ومخزوم وجمح وسهم وعدي، لم ينصفوه. فصعد الرجل جبل أبي قبيس ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته، مما دفع الزبير بن عبد المطلب للقول: "ما لهذا مترك؟". فاجتمع من ذكروا في حلف الفضول، وتوجهوا إلى العاص بن وائل، وانتزعوا منه حق الزبيدي بعد أن عقدوا هذا الحلف.[21]

تذكرة يوم الفجار وحلف الفضول في عيون الأثر

ابن سيد الناس في كتابه "عيون الأثر" أشار إلى حضور النبي ﷺ في يوم الفجار وحلف الفضول، وذلك بناءً على ما ورد في المصادر السابقة.

فيما يخص يوم الفجار، فقد ذكر السهيلي [22] أن حرب الفجار سميت بهذا الاسم بسبب وقوع القتال في الأشهر الحرم، مما كان يعتبر انتهاكًا لقدسيتها. كما أن العرب خاضوا أربع معارك كبرى أُطلق عليها فجارات، وكان آخرها فجار البراض. في هذه الحرب كانت قريش وكنانة تحت قيادة حرب بن أمية، وكان النبي ﷺ شاهدًا على هذه الحرب. رغم مشاركته في تجهيز السهام لعمومته، فإن الروايات تؤكد أنه لم يشارك مباشرة في القتال. كما ورد عن ابن سعد أن النبي ﷺ حضر الحرب في سن العشرين، وقال: "قد حضرته مع عمومتي ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت". [23]

أما فيما يتعلق بحلف الفضول، فقد شهده النبي ﷺ بعد انصراف قريش من حرب الفجار. وذكر الواقدي أن هذا الحلف وقع في شهر ذي القعدة بعد حرب الفجار التي وقعت في شوال. كان حلف الفضول أعظم الحلف الذي شهدته قريش، حيث دُعي إليه الزبير بن عبد المطلب، واجتمعت فيه عدة قبائل في دار عبد الله بن جدعان. تعاهدوا فيه على نصرة المظلوم ورد حقوقه. وقد أثنى النبي ﷺ على هذا الحلف بعد بعثته، قائلًا: "ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم وأني أغدر به بعينه" [24] ، مما يدل على عظمة وأهمية هذا الحلف في تحقيق العدالة. [25]

بنيان قريش للكعبة:

عندما بلغ النبي ﷺ الخامسة والثلاثين من عمره، قررت قريش إعادة بناء الكعبة وسقفها بعد تضررها. وعندما وصل البناء إلى موضع **الحجر الأسود**، نشأ خلاف بين القبائل، حيث أرادت كل قبيلة أن تنال شرف رفع الحجر إلى موضعه. استمر هذا الخلاف عدة أيام، حتى اتفقت القبائل على أن يكون الحكم بينهم لأول شخص يدخل من باب المسجد الحرام.

كان أول من دخل هو النبي محمد ﷺ. وعندما رأوه، قالوا: "هذا الأمين، رضينا، هذا محمد." فطلب النبي ﷺ إحضار ثوب، ووضع الحجر الأسود فيه بيده الشريفة. ثم طلب من كل قبيلة أن تمسك بناحية من الثوب، ليرفعوه معًا. وبعد أن بلغ الحجر موضعه، رفعه النبي ﷺ بيده ووضعه في مكانه، ثم واصلوا بناء الكعبة.[26]

تذكرة بنيان قريش الكعبة في عيون الأثر:

عندما بلغ النبي ﷺ سن الخامسة والثلاثين، قررت قريش إعادة بناء الكعبة بعد أن دمر السيل جزءًا من بنيانها. فقد أتى السيل من فوق الردم الذي وضعته قريش سابقًا، مما أدى إلى تدمير بعض أجزاء الكعبة. بالإضافة إلى ذلك، سرق رجل يُدعى مليح طيب الكعبة، مما دفع قريش إلى تشييد بنيانها من جديد ورفع بابها ليتمكنوا من التحكم في من يدخل إليها.

جاء في رواية ابن إسحاق أن القبائل جمعت الحجارة كل منها على حدة للمشاركة في البناء، واستمروا حتى وصلوا إلى موضع الحجر الأسود. وهنا نشب خلاف بين القبائل، إذ أرادت كل قبيلة شرف رفع الحجر إلى موضعه. اشتد الخلاف إلى درجة أنهم كانوا على وشك القتال، حتى أن بعض القبائل تعاقدت على الموت ووضعت أيديها في جفنة مملوءة دمًا، وأطلق عليهم اسم لعقة الدم.

بعد عدة أيام من النزاع، اقترح أبو أمية بن المغيرة، وكان أكبر قريش سنًا، أن يتركوا الأمر لأول شخص يدخل من باب المسجد الحرام ليحكم بينهم. فقبلوا الاقتراح، وكان أول من دخل هو النبي محمد ﷺ. وعندما رأوه، قالوا: "هذا الأمين، رضينا، هذا محمد." فلما وصل النبي ﷺ إليهم وأخبروه بما حدث من الخلاف حول وضع الحجر الأسود، طلب ثوبًا، فوُضع بين يديه. أخذ النبي ﷺ الحجر الأسود ووضعه بيده في منتصف الثوب، ثم قال لكل قبيلة أن تأخذ جانبًا من الثوب. قامت القبائل برفع الحجر معًا حتى وصلوا به إلى موضعه المحدد. بعد ذلك، تولى النبي ﷺ وضع الحجر الأسود بيده الشريفة في مكانه في الكعبة، ثم أكملوا بناءها. بهذا الحكم الحكيم، أنهى النبي ﷺ النزاع وحقق الرضا بين القبائل، وأظهر مرة أخرى حكمته وكرمه في معالجة الأمور. [27]

حكى السهيلي أن الكعبة كانت في عهد إسماعيل تسع أذرع في الارتفاع، ولم يكن لها سقف. وعندما أعادت قريش بناءها قبل الإسلام، زادوا ارتفاعها بمقدار تسع أذرع أخرى، ليصبح ارتفاعها الإجمالي ثماني عشرة ذراعا. كما رفعوا باب الكعبة عن الأرض، مما جعل الوصول إليه يتطلب استخدام درجات أو سلم. وأول من صنع لها غلقًا كان تبع، ثم بعد ذلك، عندما أعاد ابن الزبير بناءها، زاد ارتفاعها بمقدار تسع أذرع أخرى، ليصبح ارتفاعها الإجمالي سبعًا وعشرين ذراعا. وهذا هو ارتفاع الكعبة إلى يومنا هذا.[28]
لقد شهدت الكعبة خمس عمليات بناء عبر العصور، وهي كالتالي:

1. البناء الأول: حين بناها شيث بن آدم.

2. البناء الثاني: حين أعاد إبراهيم بناءها على القواعد الأولى التي وضعها آدم.

3. البناء الثالث: عندما أعادت قريش بناءها قبل الإسلام بخمسة أعوام.

4. البناء الرابع: حين احترقت الكعبة في عهد ابن الزبير. هناك روايات حول سبب الحريق، إحداها تتحدث عن شرارة طارت من أبي قبيس ووقعت في أستار الكعبة، بينما تذكر رواية أخرى أن امرأة أرادت أن تجمرها، فطارت شرارة من المجمرة إلى الأستار.

بعد هذا الحريق، استشار ابن الزبير من كانوا معه في هدم الكعبة، لكنهم خافوا من ذلك. ومع ذلك، قال لهم إن بيت أحدهم إذا احترق لن يرضوا بإصلاحه إلا بشكل كامل، وأن الإصلاح الكامل لا يتحقق إلا بهدمه. فهدم الكعبة حتى وصل إلى قواعد إبراهيم، وأمرهم بزيادة الحفر.

وعندما حركوا حجرًا، رأوا تحته نارًا وهولًا أفزعهم. فأمرهم أن يقروا القواعد وأن يبنوا من حيث انتهى الحفر.

وفي أحد الأخبار، ذكر أنه سترها حين وصل إلى القواعد، واستمر الناس في الطواف حولها حتى في أصعب الظروف. وقد قيل إن يوم قتل ابن الزبير، اشتدت الحرب واهتم الناس، لكن لم يتوقف الطواف حول الكعبة إلا عند جمل واحد ظل يطوف بها.

عندما اكتمل بناء الكعبة، ألصق بابها بالأرض وعُمل لها باب خلفي آخر. وفي هذه الأثناء، أُدخل الحجر الأسود داخل الكعبة. وذلك مستندًا إلى حديث روته عائشة، خالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال:

"ألم تري قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم حين عجزت بهم النفقة؟ ثم قال عليه الصلاة والسلام: لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفا، وألصقت بابها بالأرض ولأدخلت الحجر فيها."

هذا الحديث يبرز حرص النبي صلى الله عليه وسلم على استكمال بناء الكعبة بشكل يتماشى مع القواعد التي وضعها إبراهيم، ولكنه كان يتفهم الوضع الاجتماعي والسياسي في ذلك الوقت، لذا لم يُقدم على هدم الكعبة أو تغيير شكلها بشكل جذري. [29]

قال ابن الزبير رضي الله عنه: "فليس بنا اليوم عجز عن النفقة"، فبنى الكعبة على مقتضى حديث عائشة. وبعد فترة، قام عبد الملك بن مروان بتغيير البناء، وقال: "لسنا من تخليط أبي خبيب بشيء"، فهدم الكعبة وبناها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعندما فرغ عبد الملك من بناء الكعبة، جاءه الحارث بن أبي ربيعة المعروف بالقباع، ومعه رجل آخر، فحدثاه عن عائشة

ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن بناء الكعبة. عندها ندم عبد الملك وبدأ ينكت في الأرض بمخصرة في يده، قائلاً: "وددت أني تركت أبا خبيب وما تحمل من ذلك". وبذلك، تُعتبر هذه الحادثة المرة الخامسة التي يتم فيها بناء الكعبة، مما يعكس التاريخ الغني والمعقد لهذه البناية المقدسة وأهمية الحفاظ عليها وفقاً للتعاليم الإسلامية.[30]

عندما قام أبو جعفر المنصور [31] بتفكير بناء الكعبة على الطراز الذي بناها به ابن الزبير، استشار مالك بن أنس في الأمر. فقال له: "أنشدك الله يا أمير المؤمنين، أن تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره، فتذهب هيبته من قلوب الناس". وبهذا، صرفه مالك عن رأيه.

وقد ورد أنه تم بناء الكعبة في أيام جرهم مرة أو مرتين، نتيجة لأضرار السيل الذي صدع حائطها، ولم يكن ذلك بناءً جديدًا بل كان إصلاحًا لما وهى منه، وبناءً لجدار لحمايتها من السيل، حيث قام بذلك عامر الجادر. وكانت الكعبة قبل أن يبنيها شيث عليه السلام عبارة عن خيمة من ياقوتة حمراء، يطوف بها آدم ويأنس بها؛ إذ أنها أنزلت إليه من الجنة. ويقال أيضًا إن آدم هو أول من بناها. [32]

يذكر ابن إسحاق في غير رواية البكائي أن موضع الكعبة كان غثاءة [33] على الماء قبل خلق الله للسموات والأرض. وعندما بدأ الله بخلق الأشياء، خلق التربة قبل السماء. وبعد أن خلق السماء وقضى بخلقها سبع سموات، دحى الأرض، أي بسطها. ويستند هذا إلى قوله تعالى: "وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا" [34] وقد دحاها من تحت مكة، ولذلك سميت مكة "أم القرى". وفي التفاسير، يُشير إلى أنه عندما قال الله للسموات والأرض: "ائتيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا" [35] ، أجابت الأرض، ولا سيما أرض الحرم، بهذه المقالة، مما جعل الله يُحرمها.

وفي الحديث الشريف، يُقال إن "الله حرم مكة قبل أن يخلق السموات والأرض"، مما يعكس مكانة مكة المكرمة وخصوصيتها في الإسلام. [36]

تأملات في ابن سيد الناس و"عيون الأثر"

يقدم ابن سيد الناس، من خلال عمله الرائد "عيون الأثر"، تصويرًا شاملًا ودقيقًا لتاريخ الإسلام المبكر. يتجلى نهجه الدقيق في اللغة والمصطلحات، خاصة في كيفية تعريفه للمفاهيم الأساسية قبل التعمق في السرد التاريخي. على سبيل المثال، فإن توضيحه لمصطلح "الفجار" لا يُثري فهم القارئ فحسب، بل يُظهر أيضًا التزامه بالتواصل الدقيق.

إحدى نقاط القوة الملحوظة في كتابة ابن سيد الناس هي اعتماده على مصادر موثوقة. من خلال الاستناد إلى أعمال مؤرخين محترمين مثل ابن إسحاق، وابن عبد البر، والزُّهري، والواقدي، يُرسخ

قاعدة متينة لرواياته. يعزز هذا الاعتماد على العلماء الراسخين مصداقية حساباته، ويضع "عيون الأثر" كمساهمة هامة في علم التاريخ الإسلامي.

بينما يُؤكد ابن سيد الناس على أهمية الإسناد (سلسلة النقل)، هناك حالات يقدم فيها روايات دون التمسك الصارم بهذه القاعدة. تتيح هذه المقاربة المزدوجة أسلوب سرد أكثر مرونة، مما يجذب القراء بينما يحافظ على الدقة الأكاديمية.

إن إدماج الشعر في رواياته يُعزز الأحداث التاريخية التي يصفها. من خلال اختيار الأبيات التي تتناغم مع مواضيع رواياته، لا يُضيف عمقًا فحسب، بل يدعو أيضًا القراء للتفاعل مع المادة على مستوى أكثر عاطفية. هذه اللمسة الفنية تميز عمله وتُظهر براعته الأدبية.

إن طريقة ابن سيد الناس في تقديم وجهات نظر متعددة دون تأييد أحدها بشكل قاطع تعكس نهجًا متوازنًا في الكتابة التاريخية. من خلال الاعتراف بالروايات المختلفة، يتجنب الوقوع في فخ التحيز، مما يتيح للقراء استخلاص استنتاجاتهم الخاصة من الأدلة المتاحة.

علاوة على ذلك، يُبرز استكشافه لفضائل النبي محمد ﷺ التزامه بتسليط الضوء على الأبعاد الأخلاقية والروحية للتاريخ الإسلامي. من خلال تأكيده على صفاتهم، يدعو القراء للتأمل في القيم التي تُشكل جوهر الإيمان.

في تفصيل أحداث مثل بناء الكعبة، لا يقدم ابن سيد الناس حقائق تاريخية فحسب، بل يُوفر أيضًا معلومات سياقية غنية. إن استكشافه الشامل لتاريخ الكعبة، من أصولها إلى أهميتها في التقليد الإسلامي، يُظهر قدرته على نسج خيوط التاريخ المختلفة في سردٍ متماسك.

في الختام، يُعتبر "عيون الأثر" لابن سيد الناس شهادة على نزاهته العلمية وموهبته الأدبية. من خلال اهتمامه الدقيق باللغة، واعتماده على مصادر موثوقة، ولمسته الشعرية، وعرضه المتوازن للأحداث التاريخية، قد أبدع عملًا يُثري المعرفة ويُلهم. تظل مساهماته في علم التاريخ الإسلامي تتردد صداها، داعية الأجيال القادمة للتفاعل مع النسيج الغني لتاريخ الإسلام.

الهوامش

1 ابن حجر العسقلاني أحمد بن على، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل بيروت من دون رقم الطبعة (1414 هـ 1993م) (4/208))

2 العرينى أحمد بن أحمد،عنوان الدراية فمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الحقيق عادل نوبهض، دار الأفاق الجديدة بيروت، ط:2، 1979، ص: 294

3 شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت ط:1، (1421 هـ (2000م) (277/51)،

4 هو عمر بن محمد بن معمر البغدادي الدارقري المعروف بابن طرازه خمس الدين اللعني،

(اسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية تعليق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار عمر هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان مصر الجيزة 12 (1419هـ – 1998م) (17/24)

5 هو الشام تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة بن حمير الكندي البغدادي

(شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء ،الجزء 21 حققه الدكتور بشار عواد معروف والدكتور محيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة بيروت،ط1، (1400هـ- 1984م) (34/22) 6.)

6 هو أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن علي ابن الحرستاني القاضي الدمشقي.

(محمد بن عبد الغني الشهير بابن نقطة التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد مطبعة دائرة المعارف العثمانية :حيد آباد الدكن الهند، ط1 (1403هـ – 1983م) (2/154) ترجمة رقم [491])

7 ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: (4/209).

8 هو محمد بن إبراهيم بن محمد بهاء الدين ابن النحاس الحلبي شيخ العربية بالديار المصرية في عصره

(جلال الدين السيوطي بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية صيدا لبنان ط-2 (1399هـ – 1979م) (1/13)

9 ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: (4/209).

10 الأسنوي جمال الدين طبقات الشافعية، تحقيق عبدالله الجبوري، دار العلوم للطباعة والنشر الرياض، من دون رقم الطبعة (1400هـ – 1981م)، (2/511).

11 المرجع السابق، (2/511)

12 ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: (4/210).

13 الأسنوي. طبقات الشافعية (2/511).

14 عبد الكريم أحمد معبد، مقدمة تحقيق النفح الشذي في شرح شامع الترمذي، دار العاصمة الرياض 1409هـ ط 1،(1/63)

15 وابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة 4 في أعيان المئة الثامنة: (4/213).

16 محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711هـ) لسان العرب، ، مادة جمع ، دار صادر – بيروت ، ط:3، 1414هـ مادة جمع ج 9 ص 404.

د محمد طاهر الجوابي ، المجتمع والأسرة في الإسلام ، الناشر: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 3، 1461هـ-2000م

، ص 12.

18 سورة القلم، الآية :4.

19 صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الصحيح البخاري، دار طوق النجاة ، ط1 ، 1422هـ ،باب بدء الوحي ،رقم الحديث،3392 ،(261/1)

20 الروض الأنف في شرح ابن هشام، السيرة النبوية، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:1، 1421هـ- 2000م، 63/2.

21 المرجع السابق، 1 /30 31.

22 عبد الرحمن السهيلي أبي القاسم وأبي زيد عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد بن عبد الله بن الخطيب أبي عمر أحمد بن أبي الحسن: أصبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح السهيلي الإمام المشهور صاحب كتاب: الروض الأنف في شرح سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وله كتاب التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام وله كتاب نتائج الفكر وكتاب شرح آية الوصية في الفرائض كتاب بديع ومسألة رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ومسألة السر في عور الدجال – إلى غير ذلك من تآليفه المفيدة وأوضاعه الغريبة وكان له حظ وافر من العلم والأدب.

(الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت ط:1، 1424 هـ، 295/2 .)

23 الروض الأنف (2/ 229 – 230).

24 أبو الفداء إسماعيل بن كثير (701 – 774 هـ)، البداية والنهاية،دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط:3، 1434 هـ - 2013 م ، 82/3

25 ابن سيد الناس، عيون الأثر(60/1)

26 السيرة النبوية، علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي (ت 1420هـ)، دار ابن كثير – دمشق، ط:12 ، 1465هـ، (ص 173).

27 ابن سيد الناس، عيون الأثر(66/1)

28 المرجع السابق، (67/1)

29 المرجع السابق، (67/1)

30 المرجع السابق، (68/1)

31 أبو جعفر عبد الله المنصور، هو المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم.

32 ابن سيد الناس، عيون الأثر(68/1)

33 الغثاء: ما يحمله السيل من رغوة ومن فتات الأشياء التي على وجه الأرض، والغثاء أيضا: رغوة القدر.

34 سورة النازعات: الآية 30.

35 سورة فصلت: الآية 11.

36 ابن سيد الناس، عيون الأثر(68/1)